مأساة المعتمد بن عباد

● ها أنذا أقف حزيناً عندما أقرأ في التاريخ العربي في الأندلس ذلك التاريخ يرسم الحياة العربية الحضارية بتقدُّم ملفت وباق لم يتمكن الآخر من دفنه لرقيه ولن يستطيع التاريخ تجاوزه، أنذكر الأيام التي أنتج فيها العرب إبداعاً فكرياً خالداً في المجالات المختلفة والمتطورة للنهوض وأتذكر بحزن خروج تلك الحضارة من ذلك المكان اصطبغ بالتجانس العربي الأوروبي وأثّر في الحضارة الغربية بشكل لافت، والمحزن أن العرب لم يستفيدوا إطلاقاً من التجارب التاريخية المريرة فهذا الدرس المرير الذي يتكرر لأسباب من الخلافات والصراعات والبحث عن الثروة والنفوذ وإلغاء الأخوّة وتكريس النزاعات بين الأصل الواحد والاستقواء بالآخر الذي يقف موقف اغتنام الفرصة للسيطرة والإبادة والتهجير. إن العرب في مراحل تاريخهم المتعددة يتصارعون في دائرة النفوذ والسيطرة والبذخ ولجأوا للآخر الذي افترسهم ويديرون في صراعهم في دائرة السلطة، وعلى الرغم استمرارية التجارب المتشابهة إلا أنهم لم يتمكنوا إطلاقاً من رسم خارطة للتداول السلمي للسلطة والتي استطاع الآخر من بلورتها وتطبيقها في حياته واستفاد من تجاربه المريرة، فعندما رأى أن مرتكز الصراع التسلط أوجد الحلول والتفت للجانب التنموي فقوى وسيطر وفرض رؤاه وإذا كانت شخصية «ألفنس» ملك «قشتالة ولاون» أججت الصراع والخلاف بين العرب في الأندلس وأنجب «فرناندو وإيزابيلا» اللذان أخرجا العرب بشكل نهائي من جنة العرب المفقودة فإن «ألفنس» يتكرر وما زالت تمارس هذه الشخصية دائبة في اللعب بين العرب الذين يستجيبون للخلاف والصراع، بل وينظرون له وفي هذه سأقر مرثية لمأساة الملك الأندلسي الشاعر المعتمد بن عباد في نص لأبن لبانة وآخر للملك نفسه وفيه مسبة ومعرة تاريخية ارتكبها أمير المرابطين يوسف بن تاشفين تجاه هذا الملك والقارئ يدرك الابتعاد عن ممارسة أخلاق الملوك عندما تؤول والقوى للمنتصر تجاه الإنسان الذي بلغ نهاية المرحلة.

تبكي السماء بمزن رائح غادِ
على البهاليل منَ أبناء عبادي
على الجبال التي هُدت قواعدها
وكانت الأرض منهم ذات أوتادِ

مما سبق يلحظ القارئ حجم الفاجعة بتحول المطر فيَ السحاب إلى استمرارية دائمة للبكاء والرثاء، وكأن الآلام شملت من في السماء ومن في الأرض مبالغة في المكانة والمقام والعلو وتخصيص الحزن والألم بجزئية من بعض «أبناء آل عباد» بوصفهم بهاليل «أي أشراف وسادة قومهم ينهمر الخير منهم وفيهم».

على الجبال التي هدت قواعدها ليشير إلى شموخ ورسوخ وعلو وأنفة، لكن كان الغدر من المكان المؤثر والموجع «هُدت قواعدها» فلا يمكن التأثير في الجبل إلا من القاعدة حتى لا يثبت وهذه الصورة الاستعارية المشهدية تعكس الضخامة والثبات الذي يميز الشخصية بوصف أن إزاحة الجبل فيه الصعوبة الكثير وإن اختلت القاعدة سيؤدي ذلك إلى اضطراب وعدم استقرار وفوضى «وكانت الأرض منهم ذات أوتاد» ليشير إلى بداية للإخلال بالشيء المستقر الذي يوزع استقراره لفائدة الجميع وكأن النص يشير إلى شرط جديد يشبه علامة الساعة والقيامة بوصف أن الجبل لا يفتت إلى بقدوم الساعة والقيامة وهي وعلامة مستحدثة:

يا ضيف أقفر بيت المكرّمات فخذ
في ضم رحلك واجمع فضلة الزادِ
ويا مؤمل واديهم ليسكنهُ
خف القطين وجفّ الزرع بالوادي

إذا كان النداء القريب غرضه الحزن فإن الألم الكثيف يأتي بوضوح من خلال تحول الحياة «أقفر بيت المكرمات» ليعكس الصورة الموحشة من الثراء والسخاء إلى الفقر والقحط واليباس والعوز فكان الأمر أكثر حزناً «فخذ» أي لم يعد المكان ما ألفت وما عرفت لذلك أذهب فقيراً لا مكان يتسع لك فاذهب بالفتات المتبقي المشتت «واجمع فضلة الزاد» حتى الوادي وهو المكان الفسيح الذي للكثير فقد أقفر من السكان «ويا مؤمل واديهم ليسكنه» أي ارتدي فالمكان الواسع بدأ بالخواء والفراغ ليشير إلى جمود في الحياة للناس وعيشهم لـ«خف القطين» القطين هم السكان لذلك يقال: قاطن الدار أي سكانها والقطين هم الحاشية والخدم وكأن الوادي هنا إشارة ورمز للعطاء والتردد الدائم من ذوي الحاجة على ساحة الممدوح فيقوم الخدم والحاشية بتقديمها للممدوح ويقضيها لهم والنص يشير إلى نهاية مصالح الناس وذوي الحاجة «جف الزرع بالوادي» إشارة إلى نهاية الخصوبة والنماء والجمال وتجدد الحياة لتشكل الأبيات ما يلي:

١) نهاية لانهمار الخير من ذويه «على البهاليل من أبناء عبادِ».

علي أحمد عبده قاسم

٢) مكانة الممدوح ومقامه وشموخه «على الجبال التي هُدت قواعدها».

٣) تحول الاستقرار إلى فوضى «وكانت الأرض منهم ذات أوتادِ».

٤) تحول حياة الناس من الخصوبة إلى القحط «أقفر بيت المكرمات».

٥) نهاية لقضاء مصالح الناس «خف القطين وجف الزرع بالوادي».

وأنت يا فارس الخيل التي جعلت
تختال في عدد منها وأعدادِ
إلق السلاح وخَل المشرفي فقد
أصبحت في لهوات الضيغم العادي

إن التغير هنا في القوة بتحولها إلى ضعف فلم تعد القوى بتلك الإمكانيات «في عدد منها وإعداد» وتحول الفارس المختال إلى ذليل لأنه أصبح في سيطرة العدو «ألق السلاح؟ خل المشرفي» فالعدو افترس القوى والأرض والعرض بفعل الخلافات «أصبحت في لهوات الضيغم العادي» فالضيغم رمز للعدو المفترس والقوى المعنوية في نفسية الفارس ذابت بذهاب الممدوح.

وإذا كان الملك «المعتمد بن عباد» قد استعدى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لنصرته ضد «ألفنس» ملك لاوت وقشتالة الأسبانيتين فإن الأخير قدم بجيش وانتصر على «ألفنس» معركة «الزلاقة ١٠٨٦م ؟ ٤٧٩هـ» وكان الخطأ الأول الذي ارتكبه يوسف بن تاشفين ضم الزلاقة إليه ثم عاد بعد ليستولي على ممالك الطوائف كلها وخرج المعتمد بن عباد مأسوراً وجرّده من كل شيء واقتاده إلى سجن بالقرب من مراكش وكان الخطأ الثاني له باعتباره لم يتعامل مع ابن عباد بأخلاق الملوك بل بأخلاقه الصحراوية الجلفة الغليظة فكانت هذه المعاملة من المعرات التاريخية في التاريخ العربي وكان الخطأ الثالث أنه جاء بالمذهب الواحد ليلزم به جمهوراً منفتحاً على الآخر ومتعدد العرقيات فخنق حرية التفكير مما أدى إلى سقوط دولة المرابطين وظهور دولة الموحدين في الأندلس والمغرب وفي هذه وإذا كان المعتمد الشاعر الملك يتحدث في قصيدة له عن الإساءة فإنه يثير الآلام ونكأ الجراحات ويفتح آلاماً وجراحات ستظل عميقة وغائرة يقرأها المتلقي بمشاعر تحتويه الحسرات.

فيما مضى كنت بالأيام مسروراً
فساءك العيد في أغمات مأسوراً
ترى بناتك في الأطمار جائعة
يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية
كأنهن لم تطأ مسكاً وكافوراً
أفطرت في العيد لأعادت أساءته
فكان فطرك للأكباد تفطيرا

يلحظ المتلقي الحديث عن الزمن الماضي «فيما مضى» وكان الحديث مجملاً مختزلاً في لفظ وحيد «مسروراً» ليشير إلى سعادة وترف انتهى ولأن السعادة لا يشعر الفرد بها فألصق بها «الأيام» ليشير لقصر الزمن وإن كان كبيراً وممتداً ليذكر الخطاب الإساءة فالسوء كما قال الجاحظ «اسم جامع لكل آفة» فكانت الإساءة عكس السرور بوصف أن الزمن لم يكن عند حُسن الظن فانقلب إلى الضد فوجد الأمر السيئ فكانت المأساة التي جاءت في النص السابق في العاطفة المتأججة بآلام من خلال الرؤية في التحول «ترى بناتك» في «الأطمار» أي الثياب المهلهلة القديمة ليس فحسب بل يظهر عليهن آثار الفاقة «جائعة» من العمل «يغزلن» لسد رمق العيش فكانت قطميراً كناية عن الفقر والعوز الشديدين.

وما زالت آثار التربية التي تعكس التخلف «برزن نحوك للتسليم خاشعة» وكانت الصورة التي تليها تعكس التحول والمذلة في صورة البنات «أبصارهن حسيرات مكاسيرا» والفقر يظهر من خلال صورة القدوم «يطأن في الطين والأقدام» وهذا التحول الحزين والمؤلم في انتقال صورة الحياة من الترف إلى العوز بوصف أن زوجة المعتمد بن عباد تذكرت أيام الطفولة ورأت الأطفال والناس يلعبون بالطين من نظرتها لذلك فنقلت الرأي والرغبة لزوجها الملك فصنع لها ولأولادها كومة من الورد والزهور وضمخ ذلك بالطيوب وأمرها بممارسة تلك الرغبة في رفس ذلك الطين لكنه من الورد فقال «كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً».

ومن ذلك كانت الإساءة في تحوّل الزمن السعيد إلى كثافة الجراحات وتأتي المأساة في الأهل والمال والولد وتذكرها في يوم عيد كل الناس يلبسون جديداً فتعتبر هذه الحادثة إساءة لملك لم يتعامل بأخلاق الملوك وتعتبر معرة تاريخية ارتكبها يوسف بن تاشفين في حق المعتمد بن عباد.

قصة قصيرة

دعاء شوعي

عبدالله عباس الإرياني

● اسمه شوعي، سألته عن معنى الأسم فلم يجب، ولم أكرر السؤال..إذا أردته أجده واقفاً في الجولة، وحوله مثله ينتظرون رزق يوم، واليوم التالي في علم الغيب.

وفجأة لم اجده، كانت الجولة خالية منهم..واسمه شوعي، ما شاع الأن: الهتاف، (والجغير) في الفضائيات، والمكاتب، والمحلاتِ، والمجالس، وغرف النوم..كان تفسيراً مقبولاً، فعدت من حيث أتيت.

وفجأة وجدته في سوق القات..في مثل هذا الوقت يكونوا في السوق بملابس العمل، وأيديهم مازالت ملطخة، أستطيع أن أميزه من يده: دهان، سباك، كهربائي، عامل بناء.. ومعلم..والمفاجأه بأن ملابسه نظيفة، ويداه نظيفتين..وهو لا يزور السوق، وحالته هكذا..وكان منهمكا في فحص أوراق القات (القطل)، كأن مستقبله في تلك الوريقات، فالمثل يقول: (شربه ماء ورقه قات..بكره بعده قالوا مات)..لكزته وأنا أحييه..كأني أفزعته، أفسدت عليه مناجاة من يرجوه كيفاً، والكيف حيب.. أفزعته، فلم يعرفني لأول وهلة..رمقني بنظرة استنكار، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة..وقال:

– ماناش فاضي.

– قلت السلام عليكم.

– وعليكم السلام..وماناش فاضي.

رمقته متعجباً، ثم قلت (بخبث):

– طيب ليش.

– بارك الله فيها..أأكل نصف دجاجة.. دجاجة، وأبيع الباقي..وسبر اليوم.

رمقته حائراً، فلم انبس..فاستطرد قائلاً:

– وداخل ورق فضي..من هاذاك..المقاوم للنار.

أدرك الحائر، أيقظت النار ذاكرتي.. فقلت (بخبث):

– بس.

– ورز بخاري..ما أطعمه.

– بس.

– وما أراد الله.

أجاب على أسئلتي، فأردت أن أستفزه.. قلت:

– من غير (خباله)..وتعال معي.

ضج بالضحك، فلم أكمل..أردت أن أستفزه، فأضحتكه..وأردت، فأراد هو..أستفزني..كتمت غيضي، فلم انبس، منتظراً نهاية الضجيج..ثم قال (ساخراً):

– (خباله)..الخبلان ذي خرجوا من السوق عطل..قل: يارب

استفزني الخبيث، وأجبرني..قلت بعده:

– يا رب.

رفع يديه إلى السماء، وأحدهما متشبثة بكيس من أوراق القات..يدعو:

– يارب يخليها هكذا..لا يتفقوا..ولا تقرح.

ضجيت ضاحكا..واستفزيته..قال (منفعلا)

–واحنا المساكين بينهم..ما معنا إلا الفتات العظم.

–من هم؟.

رمقني ساخرا للحظات، ثم ولى بوجهه إلى البائع ينقده قيمة القات..وعاد بعينه إليّ كما كان ساخرا، وقال:

– من هم ؟!!..وفر هاربا.

قصة قصيرة

رهبة الألم

حامد الفقيه

● الليل حنين ، فجيعة، وأنين. يحوي في جعبته أسرار سود، وفجائع لا تكترث بدموع تجرف كيان الآمنين .

وجع يطعن اللحظة الآمنة، ويهدر روح الطمأنينة. وجع يضاجع الروح فلا يدعها تنام .

ألم المساء ابتدأ يوم أن بحثت عن حلمة ثديك كنهج للسلوى، تصدر رغبتي بألم المنع، وحسبة الفطام ، ليلتها تلك فُتح بابٌ في وجهي لم يشرع من قبل. ذلك الباب كان الطفل ذا الحولين يدلجه في ظلام يتقوقع في زاوية من حجرة لا لينام وإنما ليرى أمام ناظره صدر الحنان ، يرجع بدموع تغسل سواد الليل إلى صدر أمه علها تتراجع. لكن يبدو أن سواد الليل قد طغى حتى على قلب الرحيمة وهي تقول :

قد سن قانون الألم يا ولدي . –

حفظت أول دروس الألم ، في ليلة فزعة وسهرت ليال وأنا أتقلب في العشرين لألم الفراق حين فقدتك على هامة قلبي . حيث كنت ضياءه، وكنت بقعة النور فيّ. وحينما أمحتِ بقعة الضوء في قلبي صارت الحياة ظلاماً ، والظلام وليد الليل المشئوم .

حين رحلت كان الليل على مقربة من منتصفه فأخذ بنصفه أبي. ولو انتحر نصف الليل بسكين الموت الذي كان يحملها في جعبته السوداء، فقد كان نور السحر قريب الانبلاج ، والليل جبان لن يظهر أمام الضوء وبيده سكين غدر تفزع الآمنين.

الليل وكر الألم ، والألم قريب من أرواحنا من بعدك كقرب يد عزرائيل من روحك في ذلك الظلام من ليلة الوحشة ، استيقظ الصبح على أوجاعنا، وخلفي أصوات تجأر :

• لقد صرت رب البيت، وسبب الرزق بعد الله.

أصبح الحلم جسد منهك، متهالك، مرمي على قارعة الفزع وغصْناً كان رطباً جفت تربته وانحنى عوده.

الألم والليل صنوان، فبينما الليل شؤمه في سواده وسمحته ، أما الألم فهو حرباء بألوانها المتعددة ، اليوم يتلون تحت سقف السماء وشعاع الشمس ويضيء بنوره الأبيض شبحاً وأنا أقف على رصيف جولة العمال، أحمل بيدي فأساً يقدر على صرع الألم ، غير أن (حرباية) الألم تبعده عن مصرعه .

الألم ذاك الفاقع حزنه وهو يسرق من طفل في وقت الظهيرة خفقات العنق المثقلة بنعاس تحت وطئة عربة الأسمنت التي أخارت قواه .

الألم قاس بما فيه سلب طفل لعبة يومه، ويجعل بيَده فأساً يقطع أوصال اليوم في انتظار طلب العمل ، عين تسترحم جسده المحشو بين تزاحم الأجساد المفتولة في وقت الظهيرة، وشمسها تمتص ماء العروق؛ فيعود قرب المغيب بقطع رغيف كوجه أخيه الذي دُرّس قبل أيام، وذاق أول رسائل للألم .

طفل أمسى وليلي حزن ووقتى يعيث الألم به فسادً .

وحينها افتقدت روح الأمل إلا من رحابك يا آلهي ، خارت قواي إلا من الاستقواء بك ، ولي فيمن بات العالم عنده حزين وقد ودع أحبته الدنيا وراحوا ، وثقيف يومها تقذف بالحجارة والهوان .

وهو الحبيب يجأر لمولاه :

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي .....))

وكانت بعدها ليلة الفرح فاخترق الغسق نوراً يبلج آفاق الصديق وهو يجلجل : (إن كان قال فقد صدق) .

قراءة

لحظة التآخي

● «لحظة التآخي» عنوان كتاب جديد للمفكر والفيلسوف الفرنسي الشهير عالميا ريجيس دوبريه. وموضوع هذا الكتاب الأساسي يمكن اختزاله بأنه «التأمل حول ما يوحّد البشر في المجتمعات اليوم. بتعبير آخر يبحث دوبريه في العلاقة بين «الأنا» الفردية وبين ال«نحن» الجماعية. وهذا ما يصيغه بالسؤال التالي: كيف يمكن ل«أنا» الفردية المزّقة المبعثرة في مجتمعات اليوم أن تجد حس ال«نحن» الجماعية وقوتها؟

ويرى ريجيس دوبريه أن «لحظة التآخي» تعبّر عن مضمونها في عالم اليوم عبر مبدأ «حقوق الإنسان». وهو يناقش هذا «المعتقد المدني الجديد» على أساس أنه «التعبير المعاصر للتضامن الإنساني». لكن مثل هذه اللحظة من التآخي، لا تتحقق، كما يرى، في الشعارات ولكن بالأحرى عمل «العمل اليومي»، هذا في ظل قناعته الثابتة أن «الاقتصاد وحده لا يمكنه أن يصنع مجتمعا».

يقول دوبريه: «إنني لا أزال أتساءل باستمرار: لماذا يعيش البشر معا رغم أنهم ليسوا مهيئين لذلك»؟ وهو يشمل تساؤلاته أيضا الشعار الذي ترفعه الجمهورية الفرنسية والمتمثل في «الحرية والمساواة والإخاء».

أما الحرية فهي مقرونة دائما مع مفاهيم إضافية تلقي الضوء عليها، مثلها في ذلك مثل المساواة، لكن «الإخاء» يتم الحديث عنه وكأنه مفهوم وحيد. وهذا ما يعبّر عنه المؤلف بالقول: «يقال حرية التعبير والمساواة بين الحظوظ. لكن الإخاء مفهوم وحيد دائما مما قد يعرّضه للنسيان».

مع ذلك يؤكد دوبريه أن «الإخاء» يشكّل اللحمة الحقيقية التي جعلت الفرنسيين بكل مشاربهم وأفكارهم ومعتقداتهم وإيديولوجياتهم يلتقون منذ قيام المجتمع الفرنسي قبل عشرات القرون حول «مجموعة من القيم». هذا في ظل غياب أي «مشروع» آخر مهما كان نوعه، يستطيع أن «يلحم» الذوات. جمع ذات. الفردية في مجموع واحد. يتم التأكيد في هذا السياق على أن المجتمع الفرنسي، وعلى غرار المجتمعات العربية عامة، يعاني اليوم من تجزئة حقيقية فما كان يشكل خلال القرن الثامن عشر، قرن التنوير، والقرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين لم يعد قائما.موضوع هذا الكتاب هو إذن «الإخاء».

وريجيس دوبريه يوظّف معارفه الواسعة وقراءاته العميقة كي يتحدث عن «لحظات الإخاء» الرائعة وهو ينقّب في التاريخ والفن والأدب كي يجد الأمثلة عليها. وهو يجدها بالفعل ويصفها ويحاول نقل مضامينها ومعانيها ودروسها مهما كان الميدان الذي تبدّت فيه. إنه يجدها في مختلف المنظومات العقائدية والثورية وفي الجمعيات التعاونية . الكولخوزات . الفلاحية وفي المجتمعات الطوباوية التي سبقت الحضارات الحديثة القائمة.

ويعود دوبريه إلى تلك اللحظات من الإخاء التي عرفتها مسيرة حياته الشخصية، وهو يتحدث في هذا الإطار عن تلك المواقف «النادرة» التي عرف فيها ذلك الإحساس القوي والهادئ بالانتماء إلى مجموعة وحّدها إيمان ما أو مشروع. ويتساءل: «ماذا أصبح عليه أصدقائي في كوبا وبوليفيا وفنزويلا»؟ حيث كان قد عاش فترة من شبابه هناك «ثوريا» متمردا.

ويصف دوبريه عالم اليوم أنه «مأخوذ بالصورة» التي تجعله ينضوي تحت قوانينها، وهي تأخذ بهذا المعنى الدور الذي كان يلعبه السياسة. ويحدد سمات السياسي اليوم بالقول: «إنه يفكر بطريقة تجارية، وبذهنية التاجر. وهو يلائم يوما بيوم العرض مع الطلب وبدلا من أن يتسامى وينطلق نحو الفضاء الرحب يلتصق بأفضل ما يستطيع باستطلاعات الرأي وبالزبائن».

ويعود دوبريه في هذا الكتاب إلى الحديث، وبدرجة ما إلى التساؤل، حول شخصيات سياسية جسّدت اهتمامات عصرها «السياسية» من أمثال كاسترو وغيفارا وميتيران وديغول. ويقول عن فرانسوا ميتيران، الذي عمل دوبريه مستشارا له في البداية بعد فوزه في الانتخابات الرئاسية الفرنسية في شهر مايو من عام ١٩٨١، ما نصه:

«جمع فرانسوا ميتيران . ذات مساء من شهر مايو ١٩٨١. جميع أعضاء فريق ديوانه القادم وذلك كي يخبرنا أنه لن يكون هناك أي اجتماع آخر من هذا النوع وأنه من جهة أخرى لم يكن يريد أن يكون هناك ديوان عمليا. هكذا لم يكن بمقدور أي منا منذئذ أن يقول: نحن، أو أن يعقد اجتماعا في غيابه.

لقد كان يريد التعامل مع كل واحد عبر علاقات متفرّدة عندما تدعو الحاجة». ويدافع دوبريه في بعض الآراء المطروحة في الكتاب عن مسيرته الفكرية وسلوكيته السياسية. هذا ما تعبّر عنه بشكل جيد الجملة التالية: «لقد سمعت غالبا من يقول إنني كنت باستمرار أميل إلى جهة الرؤساء. إن ذلك يعود لقناعتي بمبدأ الفعالية في السياسة. ولهذا السبب أعاني دائما من المشاكل مع المثقفين.

إنهم يعتقدون بإمكانية حل مشكلة ما عبر توجيه رسالة أو توقيع عريضته». وكتاب غني بما ينقله مؤلفه المفكر والفيلسوف ورجل السياسة والأدب والفن عن مبدعين كبار في مختلف الميادين. هكذا يجد القارئ نفسه بحضور فكتور هوغو وبلزاك وتولستوي ودوستويفسكي وشكسبير وفلاسفة اليونان والرومان العرب ودائما بصحبة أولئك «الأقوياء» الذي كان لهم دورهم في توحيد مسيرة العالم.